كتاب اللمع ....

ومكانته من التصوف الإسلامى

كتاب اللمع ، هو اعظم تراث صوفى ، فى التاريخ الاسلامى وقد قدمه اليوم إلى عالم التصوف محققا محررا ، بعد تخريج احاديثه ، واستكمال النقص الكبير فى أبوابه ، الكاتبان الكبيران : الدكتور عبد الحليم محمود وطه عبد الباقى سرور . وقد قدم سيادتهما لهذا الكتاب العظيم بمقدمة رائعة ننشرها لما فيها من علم ومعرفة ، ودراسة صوفية عميقة هادفة .

مدرستان صوفيتان ، اعتصمتا بالكتاب والسنة ، واتخذتا من سيد المرسلين إماما وقدوة ، وجعلتا من اشواق الحب الإلهى ، ومن إلهامات الروح القرآنى ، ومن مثاليات الخلق المحمدى ، منهجا فى المعرفة ، وطريقا فى السلوك ، ومعراجا للوصول ، فقدمتا للعالمين ، أروع وأقوى روحانية إيمانية معتصمة مهتدية ، قدمتا التصـــوف الإسلامى مشرقا مبينا ، فيه هدى ، وفيه نور ؛ يرسم الطريق المستقيم المضىء ، المخبتين المتبتلين ، الذين احالو الكون ، محاريب للمناجاة والطاعات ، وجعلوا من مشاهده صفحات ناطقات ملهمات. الطريق المضىء الصاعد إلى رضوان الله وقربه ، وأنسه وحبه ، وهداه وعلمه وفيضه .

مدرستان هما قلب التصوف ولسانه وبيانه ، وإليهما الفتوى والفيصل فى مناهجه وقواعده، وسلوكه ومعارجه .

مدرستان تميزتا بالمعرفة الكاملة الصادقة ، النابعة من الكتاب والسنة ، لم تتفرق بهما السبل ، ولم تجنح بهما الأذواق والأشواق ، فلما يعترفا أبدا بالسبحات الفلسفية ، والشطحات المترنحة والكلمات الغامضة ، التى تسربت إلى الأفق الصوفى ، وحاولت أن تنتسب إليه ، وأن تتستر بأشواقه وأذواقه .

أما المدرسة الاولى ، فهى مدرسة الامام أبو القاسم الجنيد ببغداد ، وهى مدرسة اتخذت من المساجد منابر لدعوتها ، وجعلت من حلقاتها معاهد لتخريج الرجال . . الرجال الذين تموج بهم كتب الأصول الصوفية ، كأعلام تضىء كلماتهم الطريق وترسمه وتحدده.

والمدرسة الثانية ، هى مدرسة

الإمام أبو نصر السراج الطوسى بنيسابور ، وهى مدرسة أتخذت من الكتب منابر لبيان دعوتها ، وشرح رسالتها ، ونشر علومها وأذواقها ومعارفها ومعارجها .

وجعلت من صفحات هذه الكتب معاهد لتخريج الفحول من الرجال ، وخزائن خالدة ، تحفظ للأجيال ، هذا التراث المضىء العظيم .

وصاحب اللمع ، أبو نصر السراج الطوسى ، هو بحق ، اكبر المؤلفين الصوفيين واستاذهم جميعا بلا استثناء

اقتفى أثره الهجويرى فى كتابه — كشف المحجوب — وتتلمذ عليه ، أبو عبد الكريم بن هوازن أبو القاسم القشيرى صاحب الرسالة القشيرية .

فمؤلف اللمع اذن ، قد انجبت مدرسته الأقلام الكبيرة التى حفظت لنا ، ورسمت أمامنا ، مناهج الطريق وصانته وحمته من الدخيل والغريب .

كما احتضنت هذه المدرسة وحفظت لنا أيضا ، تراث الجنيد وتلاميذه ورجاله.

فاصبحت مدرسة السراج وحدها عبر التاريخ الحجة التى يلوذ بها ، ويهتدى بنورها ، عباد الرحمن الذين استهدفوا وجهة سبحانه ، وصعدوا بقلوبهم وبعزماتهم إلى الأفق الأعلى ، مع الملأ الأعلى ، لا يستنكفون عن عبادة ، ربهم ، ولا يفترون عن ذكره وحمده .

قوتهم طاعة ، وحياتهم عبادة ، ومناجاتهم حب ، ووجودهم قرب ، وذوقهم علم ، وبساطهم أنس ، وخلقهم قرآن .

إنهم أمناء الله جل وعز فى أرضه ، وخزنة أسراره وعلمه ، وصفوته من خلقه ، كما يقول السراج الطوسى فى اللمع.

إنها مدرسة المعرفة الصوفية النقية حمل اللواء فيها السراج ، والقشيرى ، والهجويرى ، والسلمى ، والكلاباذى.

المدرسة التى حاربت فى عنف وفى قسوة ، كل انحراف فلسفى ، أو شطح ذوقى ، تسرب إلى جوهر التصوف الإسلامى .

يقول المستشرق — نيكلسون — : «ولهذا نجد أوائل المؤلفين فى التصوف يرددون الانذار والتحذير من الوقوع فى وحدة الوجود ، ويكررون القول : بأن الله تعالى مخالف للحوادث مخالفة تامة ، وأن أى اتصال به يوصف بأنه اتحاد بذاته كفر وضلال » .

ولا جدال فى أن التصوف الإسلامى ، منذ فجره الأول ، قد ابتلى

كما ابتليت المعارف الإسلامية كافة، بالدخلاء الأدعياء سلوكا وقولا.

ولهذا نجد أئمة التصوف، منذ القرن الثالث الهجرى، وهم يحذرون وينذرون، وكان إكبر المنذرين واسبقهم الإمام السراج الطوسى.

يقول السراج فى مقدمته لكتاب اللمع «... واعلم أن فى زمننا هذا قد كثر الخائضون فى علوم هذه الطائفة وقد كثر أيضا المتشبهون بأهل التصوف والمشيرون إليها، والمجيبون عنها وعن مسائلها، وكل واحد منهم يضيف إلى نفسه كتاباً قد زخرفه، وكلاماً ألفه، وليس يستحسن منهم ذلك، لأن الأوائل والمشايخ الذين تكلموا فى هذه المسائل وأشاروا إلى هذه الإشارات، ونطقوا بهذه الحكم، إنما تكلموا بعد قطع العلائق، وإماتة النفوس بالمجاهدات والرياضات والمنازلات والوجد والاحتراق، والمبادرة والاشتياق إلى قطع كل علاقة قطعتهم عن الله عز وجل طرفة عين، وقاموا بشرط العلم، ثم عملوا به، ثم تحققوا فى العمل فجمعوا بين العلم والحقيقة والعمل».

وإذن فالخائضون فى علوم التصوف ومسائله، والمتشبهون الدخلاء المحجبون، قد كثروا فى الأفق الصوفى منذ القرون الأولى فى الإسلام.

والسراج يحذر منهم ويشير إليهم ثم يضع قاعدة ذهبية للتصوف والصوفية:

إنهم علماء قاموا بشرط العلم، ثم عملو به، ثم تحققوا فى العمل، فجمعوا بذلك بين العلم، والحقيقة والعمل.

ولهذا كان الصوفية عبر التاريخ، نماذج للجلال الخلقى والروحى، ونماذج للكمال التعبدى والإيمانى، ونماذج عالية سامقة، فى أفق العلم والمعرفة.

وكما يقول «ماسنيون»: —

إن رجال المعرفة الصوفية فى الإسلام، كانوا دائماً النماذج التى تقدم لنا الصورة الحية للمفكرين الكبار فى الإسلام.

ويقول شاعر الإسلام — محمد إقبال —: «إن الإسلام عند الصوفية يأخذ طابعا من الجمال والكمال، والإنسانية العالية، والأخوة العالمية، لا تجده فى إسلام الفقهاء أو المتكلمين».

وكتاب «اللمع» هو الكتاب الأم فى تاريخ التصوف الإسلامى، وقد اجتمعت له خصائص ما نحسبها توفرت لغيره من كتب الحياة الروحية الإسلامية.

فهو اقدم مرجع صوفى إسلامى، وهو فوق هذا أكبر هذه المراجع

وأوثقها وأغزرها مادة ، وأنقاها جوهرا ولفظا .

ومن مادته الخصبة اقتبس كافة من أرخ للتصوف ، وعلى ضوء مناهجه وأبوابه وقواعده ، جرت الأقلام التى قدمت لنا عبر التاريخ علوم الطريق ورجاله .

وهو كتاب تاريخ ، ومدرسة علم ، وطرق ذوق ، وإشعاع يرشد السالك ويعلم العلماء . أو كما يقول ـ نيكلسون ـ « هو مدرسة عليا لتخريج الفحول من المتصوفة الصادقين » .

وكتاب « اللمع » قد استهدف فى كل حرف فيه ، غاية قصـــد إليها ، وحرص عليها .

وهى رسم المبادىء الصوفية النقية ، تلك المبادىء التى تعبر عن روح القرآن وجوهر السنة .

المبادىء الخلقية والإيمانية ، التى تتلمذت لفعل الرسول صلوات الله وسلامه عليه وهديه .

المبادىء التى تحيط بكل شىء فى الحياة ، فتطلق فيه النور ، وتطلق فيه الروح ، وتطلق فيه الحب ، وتعمق فيه الاحساس المقدس ، الاحساس بالقرب من الله ، قرب ذوق ووجدان ومشاهدة ذوق ووجدان . . فإن لم تكن تراه فإنه يراك :

المبادىء التى تتحقق فيها كلمات الله التى صورت الأمة الإسلامية بانها خير أمة أخرجت للناس .

فإذا صور السراج فى « اللمع » تلك المبادىء فاحسن تصويرها ، وأبدع رسمها ، وأشاع الروح والحياة فى أفقها ، مدعما لها بالأدلة القرآنية والنبوية والعلمية والذوقية ، عمد إلى أدق وانبل ما فى كتابة :

عمد إلى بيان كامل ، وحصر شامل الأخطاء التى وقع فيها السالكون للطريق ، إما عن سوء نية ، أو عن حسن قصد .

وهنا يتفوق السراج على نفسه ، فهو عالم نفسانى ، وهو حكيم ربانى ، وهو مبصر ببصيرة علوية يتسلل بها إلى خفايا الصدور ، وخفقات القلوب كما يتسلل إلى دقائق المعرفة ورقائق الذوق ، فيكشف عن اخطاء العابدين كما يكشـــف عن عقد الذاكرين ، وتلبيسات المحبين ووسوسة الزاهدين ، وهى أخطر عقبات الطريق ومزالقه .

فيجلو لنا بذلك كله وجه التصوف الإسلامى ، كما جاء به القرآن ، وكما صوره خلق الرسول وهديه ، وكما عاشه رجاله واعلامه ، وهم الصفوة من خلق الله ، والخيرة من عباده وخزائن العلم والمعرفة ، علم الشريعة ، وذوق الحقيقة ، وفيض العطاء الربانى الذى تتلمذ عليه من اصطفى الله من عباده .